الجمال الفني في البلاغة من كلام الرسول ﷺ

Technical beauty in rhetoric from the words of the Messenger ﷺ

Faheem[1]

Abstract
In this study, we combined the behavioral and objective approach in the field of empirical aesthetics. First, we studied the perception of beauty by investigating shifts in evaluation on perceived beauty of abstract artworks (Experiment 1). Because the participants showed heterogeneous individual preferences for the paintings, we divided them into seven clusters for the test. The experiment revealed a clear pattern of perceptual contrast. The perceived beauty of abstract paintings increased after exposure to paintings that were rated as less beautiful, and it decreased after exposure to paintings that were rated as more beautiful

Keywords: preference, evaluation, perception.

فالفنُّ في هذه البلاغة هو في دقائقه أثرُ تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة، التي يحتاج إليها الوجود الروحانيُّ على هذه الأرض، ولذا ترى كلامه - صلى الله عليه وسلم - يخرج من حدود الزمان؛ فكل عصر واجدٌ فيه ما يقال له، وهو بذلك نُبُوَّةٌ لا تنقضي، وهو حي بالحياة ذاتها؛ وكأنما هو لون على وجه منها - كما ترى - البياضُ مثلاً، هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري..

فإذا نظَرْتَ فِي هذا الفَنِّ فانظرْه في حديثه، وفي عمله، وفي الدنيا التي أَلَّفَها من التاريخ تأليفَ القطعة البليغة النادرة من الكلام، ورُدَّ كلَّ ما تدبَّرْتَهُ[1] من ذلك إلى الروح الجديدة على تاريخ الأرض؛ فَلَتَعْلَمَنَّ حينئذ أنَّ كل بليغ هو شمعة مضيئة، صنعتْ لها مادةُ النور نورًا وجمالاً، بجانب هذه الشمس التي خُلِقَتْ فيها مادة النور نورًا وجمالاً وحياةً وقوَّة؛ هناك نور لذي عينين، وهنا النور لكل ذي عينين؛ وذاك يتخايل كالحُلم، وهذا يفصح كالحقيقة؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دانية، وهذا قد طَرَدَ الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا، والأوَّل نور بلا روح، والثاني هو روح النور.

تلك في رأينا هي الطريقة التي كان يفهمه بها أصحابه - صلى الله عليه وسلم - كما يفهم الشاعر نور القمر في ليلة صيف بمعانٍ من الزمان والمكان، ومن النفس والحالة، ومن الهيئة والشكل، ومن العين والفِكر، ومن السماء والأرض؛ ففيه النور وزيادة؛ أيِ: الحقيقة وما ترتفع به على نفسها، وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفَنِّ مع الفَنِّ؛ إعجابًا وحُبًّا وانقيادًا وطاعةً؛ حتى انخلعوا[2] من عصرهم ودنياهم، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم، وانجذبوا إليه أشدَّ انجذاب عرفه التاريخ، وأصبحوا مُصَرَّفِينَ معه تصريفَ الحوادث؛ لا تصريف الأشخاص، وعادت أنفسهم وكأنَّ تأثير الأرض يلتقي فيها بتأثير السماء، فيُغْسَلُ في سُحُب عالية، فلا يكون فيها كما يريده الناس؛ بل كما يريد الله، ورجعت قلوبهم لا تُلَبِّسُ على دينها رأيًا ولا هوًى، وكأنما وُضِعَ لها هذا الدينُ

[1] University of Okara

حرسًا على كل سَمْعٍ وعلى كلِّ بَصَر؛ وبالجملة فأولئك قوم كأنما تناولهم النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - فأَفْرَغَهُم ثم ملأهم، وما انتقلوا إلى منزلتهم العالية في التاريخ؛ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشريفة.

وناهيك من رجال يُمَثَّلُ لهم بهذا المَثَل، الذي يَضرِبه لهم في الإيمان ليبلغوه أو يقاربوه؛ فعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ - رضي الله عنه - قال: "شَكَوْنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكعبة، قلنا: ألا تَستنصِر لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟! قال: ((كان الرجل فيمن قبلَكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيجاء بالمِنشار، فيوضع على رأسه، فيُشَقُّ باثنين، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينه)).

فانظر يا هذا، فإنه لو اجتمعتْ قُوَى الكون فجاءت يَشُدُّ بعضُها بعضًا فنزلت في عبارة من الكلام لتملأ نفوس المؤمنين بقوَّتها، لما وضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير، وأسنان المنشار في عظم الإنسان الحي ولحمه، وظاهر التمثيل على ما رأيت من العَجَبِ، ولكنَّ له باطنًا أَعْجَبَ من ظاهره، وهو البلاغة كلُّ البلاغة، والبيانُ حقُّ البيان فإنَّما يريد - صلى الله عليه وسلم - أنَّ الحديد لا يأكل، ولا يمزع من أولئك الأقوياء بإيمانهم عظمًا، ولحمًا، وعصبًا؛ بل هو حديد يأكل حديدًا مِثْلَهُ، أو أَشَدَّ منه؛ فإنَّ للروح المؤمنةِ المُسَلَّطَةِ على جِسْمِها قُوَّةً تَصنع هذه المعجزةَ؛ فيَمُرُّ الحديد في العَظْم واللحم والعَصَب، يَسْلُبُها الحياةَ، ولكنها تَسْلُبُهُ شِدَّتَهُ، وجَلَدَهُ، وصَبْرَهُ.!

وكل ما جاء منَ التمثيل في كلامه - صلى الله عليه وسلم - يَنْطَوِي فيه من إِبْدَاعِ الفَنِّ البَيَانِيِّ، وإعجازِهِ ما يَفُوتُ حُدودَ البُلَغاءِ حتَّى لا تَشُكَّ إذا أنت تدبَّرْتَهُ بحقِّهِ منَ النظر والعلم أنَّ بلاغته إنَّما هي شيء كبلاغة الحياة في الحيِّ: هي البلاغة، ولكنها أبدع مما هي؛ لأنها الحياة أيضًا.

وأنت خبيرٌ أن هذا النبيَّ الكريمَ - صلى الله عليه وسلم - كانت تأخذه عند نزول الوحي عليه أحوالٌ وُصِفَتْ في كُتُبِ الحديث: قالت عائشة - رضي الله عنها -: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فَيَفْصِمُ[3] عنه، وإن جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ[4] عَرَقًا"، وفي حديث آخَرَ عنها قالت: "فأخذه ما كان يأخذه من البَرْحَاءِ[5] حتى إنه لَيَتَحَدَّرُ[6] عنه مِثْلُ الجُمَانِ[7] منَ العَرَق في يومٍ شاتٍ"، وفي حديث زيد بن ثابت: "فأنزل الله - عز وجل - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفَخِذُهُ على فَخِذِي فثَقُلَتْ عليَّ حتى خِفْتُ أن تَرُضَّ[8] فَخِذِي"، وفي حديث يَعْلَى بنِ أُمَيَّةَ حين قال لعمر: "أَرِنِي النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - حين يوحى إليه: فأشار عمر إليَّ، فجئتُ وعلى رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثوبٌ قد أظلَّ به فأدخلتُ رأسي فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مُحْمَرُّ الوجهِ، وهو يَغُطُّ"[9] أي: يُرَدِّدُ نَفَسَهُ من شِدَّةِ ثِقَلِ الوَحْيِ."

فهذه كلُّها أحوال تَصِفُ عَمَل الدِّماغ بكل ما فيه من جُهد القُوى العَصَبِيَّة؛ ليرتفع بالحياة إلى ما فوقها، ويتركها لوعي الروح وحدها، لا يشاركها في هذا الوعي فِكْر، ولا هاجس[10]، ولا يتَّصل به شيء من حياة الحيِّ، فيتحقَّق للنبي - صلى الله عليه وسلم - وجودٌ آخَرُ غيرُ وجوده المحدود بجسمه، وطباعه، ودُنياه؛ ويخرج بوَعْيِهِ من هذه

الجاذبية الأرضية إلى ما وراء حدود الطبيعة من قُوى الغَيْب، وبذلك يتلقى عن روح الكون ثم يَفْصِمُ عنه وقد وعى ما أُوحِيَ إليه.

وما وصفه زيد بن ثابت - من أن فَخِذَهُ كادت تَرُضُّ - برهانٌ قاطع على أنَّ روحه - صلى الله عليه وسلم - تَنْسَرِحُ[11] من جسمه ساعةَ الوحي فَيَثْقُلُ الجسم؛ لأنَّهُ إنَّما يخفُّ بِالرّوح، وتَبقى وظائفُ الحياة عاملةً أعمالَها بعُسْر وبُطْءٍ؛ لاتصالها بشعاع من الروح دُون الروح بجملتها؛ ولسنا هنا بصَدَد الكلام عنِ الوحي؛ فله موضع إن شاء الله في كتابنا "أسرار الإعجاز" وإنما نريد أن ندلُّ على أنَّ هذه التهيئة الإلهية لذلك الجهاز العصبي، لها أثرها العظيم في فنِّ بلاغته - صلى الله عليه وسلم - وبها امتاز عن كلِّ بُلَغاء الدنيا؛ فإن المُلْهَمَ[12] من أفذاذ العَبْقَرِيّينَ على هذه الأرض إنَّما يبلغ ما يبلغه ببعض هذا الذي رأيت، وفي بعض هذا أَبْدَعُ ما وَرِثَتِ الدّنيا من فنون البيان، وكأن في الدماغ مادَّةً في موضعٍ منه يَمِيزُ بها مَنْ تَخْتَارُهُمُ السماء لحكمتها وإلهامها، وإذا كان فنُّ العَبْقَرِيّينَ هو أسمى الكلام الإنسانيّ لما خُصُّوا به من هذه التهيئة فإنَّ فنَّه - صلى الله عليه وسلم - يكون - ولا جَرَمَ - من باب الأكبر مما هو أكبر في إلهام الإنسانية كلها.

ولهذه القوة النادرة كان بيانُهُ قويًّا على مزج معانيه بالنفس بما فيه من صَنْعَة الحياة، وإنَّما فلسفة البيان الفَنّيّ أن تَمْتَدَّ الحياةُ من النفس إلى اللفظ، فتصنعَ فيه صُنْعَها، فتَفْصِلَ العبارة الفَنّيَّة عن كاتِبِها، أو قائِلِها، وهي قطعةٌ من كلامه لتستحيل عند قارئها، أو سامعها قطعة من الحياة في صورة من صور الإدراك؛ فالبيان الفنيُّ هو الوسيلة لحمل الوجود وبَعْثَرَتِهِ في مواضعَ غيرِ مواضِعِهِ، وخَلْقِهِ خَلْقًا آخَرَ في النفس الإنسانية؛ وبذلك يؤول[13] قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((إنَّ مِنَ البيانِ لَسِحْرًا))، جَعَلَ نَوْعًا من البيان هو السحرَ، لا البيانَ كلَّه؛ فالحديث كالنَّصِّ على ما تُسَمّيهِ الفلسفة الأوربية اليوم "بالبيان الفَنّيّ" كأنه قال: إنَّ من البيان فَنًّا هو سحر من عمل النفس في اللغة تُغَيِّر به الأشياء، وله عَجَبُ السحر وتأثيره وتصرُّفه؛ وهذا معنًى لم يَتَنَبَّهْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، ولا يذكر معه كل ما قالوه في تفسير الحديث، وبذلك التأويل يكون هذا الحديث قدِ احْتَوَى أَسْمَى حقيقةٍ فلسفية للفن.

ومن أثر تلك القُوَّةِ أَيْضًا: ما تراه من شِدَّة الوضوح في كلامه - صلى الله عليه وسلم - ولقد رأينا هذه البلاغةَ النَّبويَّةَ العجيبةَ قائمةً على أنَّ كُلَّ لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة؛ فالعِنايَةُ فِيها بِالحقائِق ثم الحقائق هي تختار ألفاظها اللغوية على منازلها؛ وبذلك يأتي الكلام كأنه نُطْقٌ للحقيقة المعَبِّرُ عنها، والكلمة الصادقة تُنْطَقُ مرةً واحدة؛ فصورتها اللغوية لا تكون إلا صريحة منكشفة عن معناها المضيء كأنَّما ألقي فيها النور.

وهو معلوم أنه - صلى الله عليه وسلم - لا يتكلف ولا يتعمَّل، ولم يكتب ولم يؤلف ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعًا يَقبل التنقيح[14] أو تعرف له رِقَّةً من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياسٌ وميزانٌ، أو كأنَّ هذه البلاغةَ تَنْبَثِقُ بالكلام على طبيعة عاملة فيه بِقُواها الدائبة الثابتة ففنُّها الجميلُ هُوَ التَّركيبُ الذي تجئ فيه كما ترى الشجر مثلاً كاسيًا من ورقِهِ وزَهْرِهِ؛ فأنت منه بإزاء عَمَلٍ جميل؛ لأنَّك بِإِزاءِ حقيقةٍ طبيعيَّةٍ قَدِ انفردت في ذاتها، ومعنى انفرادها في ذاتها أنَّها كذلك هي؛ فليس فيها موضعٌ لِشَيْءٍ غيرُ ما هو فيها.

ثُمَّ لا تَنْسَ أنَّ النّبوَّة أكبر السبب في ذلك الوضوح البياني العجيب؛ فإنَّ الحياة لا تستغلق في البلاغة بإنسان إلا وهي غَنِيَّةٌ عنه، ولعلَّ غموض بعض الفلاسفة، وبعض الشعراء وهو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون في الطبيعة... ألا ترى أن من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحيانًا هو نَقْضَ معناها؛ إذ يتصنعون للفِكْرِ، ويستجلبون له، ويُشَقِّقُون فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ؛ فهاهنا البديع اللفظيُّ، وهناك "البديع الفكريُّ"، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبَهْرَجَة.

ومتى كان النبي قِسْمًا من الحياة، بل مادَّةً لمعانيها الجديدة، فلن يكون بيانُهُ إلا على ما وصفْنا لك جمالاً، ووضوحًا، ومنفعةً، ودقةً، وسُمُوًّا بقَدْر ذلك كلِّه.

وهنا معنى نريد أن نُنَبِّهُ إليه، ونتكلم في سِرِّه وحقيقته، فإنك تقرأ ما جُمِعَ منَ الكلام النبويِّ، فلا تصيب فيه ما تصيبه في بلاغة أدباء العالم مِمَّا فَنُّه الكلام في المرأة، والحُبِّ، وجمال الطبيعة، وهو في بلاغة الناس كالقلب في الجسم: لا تخلو منه ولا تقوم إلا به، حتى تجد الكلام في المرأة وحدها شَطْرَ الأدب الإنسانيِّ، كما أنَّ المرأة هي شطر الإنسانية, ولا يعرف له - صلى الله عليه وسلم - في هذه الأغراض إلا كلماتٌ بيانيةٌ جاءت بما يَفُوتُ الوصفَ من الجمال والدِّقَّة، متناهيةً في الحُسْنِ، طاهرةً في الدَّلالة، يظهر في وجه بلاغتها ما يظهر في وجه العذراء من طبيعة الحياءِ والخَفَرِ؛ كقوله في النساء: ((رِفْقًا بِالقَوَارِيرِ))، وقولِهِ لأُسامة بن زيد - وقد كساه قبطية[15] فكساها امرأته -: ((أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا))، قال الشريفُ الرَّضِيُّ - في شرح هذه الكلمة -: "وهذه استعارة، والمراد أن القِبْطِيَّةَ برِقَّتِها تَلْصَقُ بالجسم فتُبَيِّنُ حجم الثديَيْنِ، والرادِفَتَيْنِ، وما يشتدُّ من لحم العَضُدَيْنِ والفَخِذَيْنِ فيعرِفُ الناظر إليها مقاديرَ هذه الأعضاء حتى يكون كالظاهرة لِلَحْظِهِ، والممكنةِ للَمْسِهِ فجعلها - عليه الصلاة والسلام - لهذه المحالِّ كالواصفة لما خَلْفَها، والمُخْبِرَةِ عمَّا اسْتَتَرَ بها، وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله: "إياكم ولُبْسُ القَبَاطِيِّ فإنها إلا تَشِفَّ تَصِفْ"، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا عُذْرَةِ هذا المعنى، ومَنْ تَبِعَهُ فإنما سلك فَجَّهُ.

قلنا: وهذا كلام حَسَن، ولكنَّ في عبارة الحديث سِرًّا هو من معجزات البلاغة النبوية لم يَهْتَدِ إليه الشريفُ على أنَّه هو حقيقة الفنِّ في هذه الكلمة بخاصَّتِها، ولا نظن أن بليغًا من بُلغاء العالم يتأتى لمثله فإنه - عليه الصلاة والسلام -لم يقل: أخاف أن تصف حجم أعضائها، بل قال: "حجم عظامها" مع أنَّ المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السُّمُوِّ بالأدب، إذ ذِكْرُ "أعضاء" المرأة في هذا السياق وبهذا المعرِضِ هو في الأدب الكامل أشبَهُ بالرَّفَثِ[16] ولفظةُ "الأعضاء" تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرَّضِيُّ في شرحه، وهي تومئ إلى صور أخرى من ورائها، فتَنَزَّهَ النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - عن كل ذلك، وضرب الحجاب اللغويَّ على هذه المعاني السافرةِ، وجاء بكلمة "العظام"؛ لأنها اللفظ الطبيعية المبرَّأةُ من كل مَزْغَةٍ لا تَقبل أن تَلْتَوِي، ولا تُثِيرُ معنًى ولا تَحمل غَرَضًا؛ إذ تكون في الحيِّ والميِّتِ بل هي بهذا أخصُّ؛ وفي الجميل والقبيح بل هي هنا أَلْيَقُ، وفي الشباب والهرم بل هي في هذا أوضح، والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام فالمجاز على ما ترى والحقيقة هي ما علمت.

ومن كلماته في الوصف الطبيعيُّ قولُهُ - صلى الله عليه وسلم وهو يذكر أوقات الصلاة -: ((العصر إذا كان ظلُّ كلِّ شيءٍ مِثْلَهُ، وكذلك ما دامت الشمس حيَّةً، والعشاء إذا غاب الشَّفَقُ إلى أن تَمْضِيَ كَوَاهِلُ الليل))، وكواهل الليل: أوائِلُهُ، وفُرُوعه المتقدِّمَةُ منه، كالذي يتقدم المطايا من أعناقها الممتدة بعض الامتداد، وقوله وقد سأله رجل: "متى يُصلِّي العشاء الآخِرَةُ؟"، فقال - عليه الصلاة والسلام -: ((إذا ملأ الليلُ بَطْنَ كلِّ وادٍ))، وقوله: ((إذا طلع حاجب الشمس فأَخِّرُوا الصلاة حتى ترتفع))، وقوله: ((إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربَّه في الزرع، فقال له: ألستَ فيما شئتَ؟ قال: بلى، ولكني أُحِبُّ أن أزرع، قال: فبَذَرَ فبادر الطرفَ نباتُهُ، واستواؤه، واستحصاده فكان أمثال الجبال)).

وقوله: ((بَيْنَا رجل يمشي فاشتدَّ عليه العَطَشُ، فنزل بِئرًا فشَرِبَ منها ثم خرج فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خُفَّهُ ثم أمسكه بِفِيهِ، ثم رقي[17] فسقَى الكلبَ فشكر الله له، فغفر له)) قالوا: "يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟" قال: ((في كل كبدٍ رطبةٍ أجر)).

فهذا ونحوه من الفنِّ البديع النادرِ وهو مع ذلك لا يأتي في كلامه - صلى الله عليه وسلم - إلا في مثل ما رأيت فلا يراد منه استجلابُ العبارة، ولا صناعةُ الخيال فيظن من لا يُمَيِّزُ، ولا يُحَقِّق أن خُلُوَّ البلاغة النبوية من فنِّ وصف الطبيعة والجمال والحبِّ دليل على ما يُنكره، أو يَسْتَجْفِيهِ[18]، ويقول: بَدَاوَةٌ، وسَذَاجَةٌ، ونحو ذلك مما تُشَبِّهُهُ الغفلةُ على جَهَلَةِ المستشرقين، ومَن في حكمهم مِن ضِعاف أدبائنا وجَهَلَةِ كُتَّابِنَا، وإنما انتفى ذلك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لانتفاء الشِّعْر عنه، وكونه لا ينبغي له كما بسطناه في مَوْضِعِهِ؛ فعمله أن يَهْدِيَ الإنسانيةَ لا أن يُزَيِّنَ لها، وأن يَدُلَّها على ما يجب في العلم، لا ما يحسن في صناعة الكلام، وأن يَهْدِيَهَا إلى ما تفعله لتَسْمُوَ به، لا إلى ما تتخيله لتَلْهُوَ به، والخيال هو الشيء الحقيقيُّ عند النفس في ساعة الانفعال، والتأثُّر به فقط، ومعنى هذا أنه لا يكون أبدا حقيقة ثابتة، فلا يكون إلا كذبًا على الحقيقة.

ثم هو - صلى الله عليه وسلم - ليس كغيره من بُلغاء الناس: يتصل بالطبيعة ليستملي منها؛ بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلي ليملي فيها، وقد كانت آخِرُ ابتسامة له في الدنيا ابتسامتَه للصلاة يَتَهَلَّل لطهارة النفس المؤمنة، وجمالها قائمة بين يدي خالقها، مُنْسَكِبًا في طهارتها روحُ النور، وكل إنسان إنما يبدو الكون في عينه على ما يرى مما يشبه ما في نفسه، فكُلَّمَا رآه المصلي الخاشع في صلاته يبدو له كأنه يصلي في ضرب من العبادة على نحوٍ منَ الدين، وكُلَّمَا رآه السكران في سُكْرِهِ يكاد يراه متخبطًا يُعَرْبِدُ ما يتماسَكُ.

ثم إن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحُبِّ على طريقة الأساليب البيانية، إنما هو باب من الأحلام؛ إذ لا بد فيه من عينَيْ شاعر، أو نَظْرَةِ عاشقٍ، وهنا نبيٌّ يوحى إليه، فلا موضع للخيال في أمره إلا ما كان تمثيلاً يراد به تقويةُ الشعور الإنسانيِّ بحقيقة ما في بعض ما يَعْرِضُ من باب الإرشاد والموعظة، كما مر بك من أمثلته، وكقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُبَابٍ مرَّ على أنفه))، وهذا كلام أبلغ ما أنت واجدٌ من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق، كأنه حاسَّةٌ منَ النور كُبَّت في شعورها، وتلك النفس الفاجرة بإحساسها الغليظ، كأنه حاسة من التراب...

ويكاد المؤمن الذي يسمع هذا الوصف يُذَكِّرُهُ ذنوبَهُ أن يُحِسَّ بحركة جبل يهم أن ينقلع فيميل عليه أما الفاجر فيسمعه يُذَكِّرُهُ ذُنُوبه فإذا هي في خياله نُقَطٌ سُودٌ تَمُرُّ مرورَ الذباب ليس منه الحسُّ به كما يُحِسُّ مَن يُضْرَبُ على أنفه برِجْلِ ذُبابة... وجَعَلَ الذبابُ يمر على أنفه دون عينه أو فمه، وذلك منتهى الجمال في التصوير؛ لأن الذباب إذا وقع على الفم أو العين ثبت وألحَّ فإذا وقع على قَصَبَةِ الأنف لم يكد يقف ومر مروره.

الكون في نظر النبيّ - صلى الله عليه وسلم - آية الحكمة لا آية الفنّ، ومنظر المستيقِنِ لا منظر المتخيّلِ، ومادَّة العُبودية لله لا مادَّة التألُّهِ للإنسان، وبذلك حَرَّمَ الإسلامُ أشياءَ، وكره أشياء لا يكون الفنُّ بغيرها فَنًّا، في ضروب من الشِّعر، والتصوير، والموسيقى، والحب؛ لأنه إنما ينظر للإنسان واحدًا وجمعًا وحاضرًا وآتيًا؛ وواجبًا ومنفعةً، ولذةً وألمًا؛ وهذه كلُّها لا إطلاق فيها إلا من أجل القيد، على حينِ أن الفنَّ لا قيد فيه إلا من أجل الإطلاق، وأساس الدين حظُّ الجماعة وقيودها، وأساس الفن الفردُ وحريَّتُهُ، وهذه الحياة لا تبدو في حالة تركيب وانتظام إلا إذا كانت للكلِّ، فإذا كانت لفرد ظهرت في هيئة انحلال وانتفاض، وأصبحت في الكون كلِّه كأنَّها عمر إنسان واحد.

ثُمَّ إنَّ للفَنّ ألوانًا لا بد منها لتصويره الجميل الذي تَعْجَبُ به النفس، والشيطان هو اللون الأحمر فيها... أي هو أَشَدُّها زهْوًا وإشراقًا وجمالاً في التصوير الفنيّ لكل ما في المرأة، والحب، والجمال، وشهوات النفس، ولسنا نُنْكِرُ أن الحياة القوية حين تُمازجها هذه الفنونُ تَكْسِبُ مَرَحًا ونشاطًا، ويكون لها رَوْنَقٌ، وفيها متاع؛ ولكن الحياة لا تكون بها كذلك إلا من أنها تَحْتَسِي[19] خَمْرَهَا... فلها بعدُ - من عاقبة هذه الفنون - شبيهٌ بما يكون للجسم القوي من عاقبة الخمر إذا تغلغلت الخمر في شعاب كَبِدِهِ، وأحاطت رطوبتها يابسة، كما وقع في أطوارٍ كثيرة من تاريخ الأمم؛ فليس الاعتبار في هذا التشبيه بما يَعْرِضُ من تأثير الساعة الزائلة بأفراحها، وفنّ حياتها؛ بلِ الشأن للعاقبة المحتومة متى جاءت ساعتُها الباقيةُ بأحزانها، وفن هلاكها؛ فالإسلام فيما حرَّم وكَرِهَ من ذلك لم يزد على أن أراد للحياة أن تحيا؛ لأنه لا يقر صورة من صور انتحارها.

ومَنْ كان أكبرُ عَمَلِه إنشاءَ الحقائق الإنسانية، وتقريرَها شريعةً، وعاطفةً، وأعمالاً، فلا جرم كان فنُّهُ غيرَ الذي أكبرُ عملِهِ تَمْوِيهُ تلك الحقائق، وزخرفتها ليقع الإحساس بها على غير وجهها، فتَخِفَّ بالواقع منها على النفس خِفَّةَ الكذب في ساعة تصديقه، وهذا هو أكبر عمل الشِّعر.

وهاهنا سِرٌّ دقيقٌ لا يتمُّ كلامنا إلا بشرحه؛ لنقطع القول في هذا المعنى، فيظهر حقُّهُ من باطله:

قلنا آنفًا إن النبي - صلى الله عليه وسلم - ليس كغيره من بُلغاء الناس: يتصل بالطبيعة يستملي منها، بل هو نبيٌّ مرسَل متَّصِل بمصدرها الأزليّ؛ ليملي فيها.

ومعنى هذا أنه لا يَعْرِضُ له من زَيْغِ النفس ما يَعْرِضُ لغيره منَ الناس، فأَحْكَمُ حُكَمَاءِ الدنيا لا يستطيع أن يَتَبَيَّنَ جزءًا صغيرًا منَ الكون على حقيقته؛ إذ كانت حواس الجسم غيرَ مُهَيَّأَةٍ لذلك، فَفَهْمُ جزء مِنَ الكون فهمًا صادقًا

جزمًا لا يتم إلا بفهم الكون بأجمعه، فهو كله ذَرَّةٌ مكبَّرَةٌ إلى ما لا ينتهي ولا يُحَدُّ، وليستِ النبوةُ شيئًا غير الاتصال بالسرِّ.

والحاضرُ الذي يكون في إنسان من الناس، هو حاضر ليس غيرُ؛ لأنه يتحوَّل ويَفْنَى؛ فهو منَ الزيغ الذي يَعْتَرِي النفسَ، ومنه كل أغراض الحياة البشرية الفانية؛ ولهذا كان طابع الله على نبيّنا - صلى الله عليه وسلم - هو تجريدَهُ من زيغ الهوى[20] وسَرَفِ الطبيعة، فهو من الناس، ولكنه متخلِّق بأخلاق الله سبحانه، وله في هذا الباب ما ليس لأحد، ولا يُطِيقُهُ أحدٌ، ويجب على مَنْ يَقْرَأُ سِيرته، وشمائله، وحديثه أن يبحث دائمًا عن طابع الله في كل شيء منها، فإنَّه سَيَرَى حينئذٍ كأنَّهُ يَدْرُسُها مع الملائكة لا مع الناس، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطِعْ تحقيق غايتها الأخلاقيةِ العُليا إلا فيها، وأنه - صلى الله عليه وسلم - كان إنسانًا وكان أيضًا حركة في تقدم الإنسانية؛ وأن من معجزاته أنه أطاق في تاريخه ما عجزت عنه البشرية في تاريخها، وأن كل أموره - صلى الله عليه وسلم - موضوعةٌ وَضْعًا إلهيًا كأنها صفاتٌ كوَّنها الله، وعلَّقَها في التاريخ لمعاني الحياة، تعليق الشمس في السماء لمواد الحياة.

إن الشهواتِ والمصالحَ إنما هي حَصْر النفس في جانب من الشعور محدودٍ بلذاتٍ، وهُموم، وأحاسيسَ تجعل غَرَضَ الإنسان في الإنسان نفسِهِ، فهو كما يملأ مَعِدَتِهِ، ويتأنَّقُ في الاختيار لها، يُريدُ من كل ذلك أن يملأ شَخْصَهُ على هذه الطريقة بعينها، طريقة إشباع مَعِدَتِهِ... وبهذا تسخر منه حقائق الكون؛ لأنها لا تُحَدُّ بشخص، ولا تنحصر في أحد، وكلُّ مَن كانت حُدُودُهُ الإنسانيةُ، جسمَهُ، ولذاتِ جسمِهِ -: فهو في مقدار هذا الكون كالميّت المحدود من الأرض كلِّها بقَبْرِه، وتُرابِ قَبْرِهِ؛ وإنه لَيَجِدُ جِسْمَهُ، وأكاذيب الطبيعة عليه، ولكنه لن يجد الروح وحقائقها؛ وإذا لم يجد هذه فَلَنْ يَعْرِفَ الكَوْنَ وأسراره، وإذا فَقَدَ هذا فهو الحاضر الضيّقُ المُشَوَّهُ المكذوب، ومن ثَمَّ فَفَنُّهُ شهوة إحساسه وإن كان مخدوعًا، وشهوة نظره وإن كان مُلَبَّسًا عليه، وشهوة خياله وإن كان التمويه، والمزوَّر، والحاضر الضيق المشوَّه المكذوب الخادع هو المسمى في لغة القرآن والحديث "بالدينا" فإذا اتَّسع الإنسان لروحه، وأدرك حقيقتها، ووعى ما بينها وبين الكون، وأخذ يحقق هذه الروح السماويةَ في أعماله، وتَخَطَّى حدودَ جسمه إلى فِكْرَةِ الخلود، فهذا كلُّه هو المسمَّى في لغة القرآن والحديث "بالآخرة" فهما كلمتان في منتهى الإبداع من الفَنِّ، والفلسفة وعلى ذلك يُؤَوَّلُ قوله - صلى الله عليه وسلم - في خطبته: ((من كان هَمُّهُ الآخرةَ جَمَعَ الله شَمْلَهُ، وجعل غِناهُ في قَلْبِه، وأَتَتْهُ الدُّنيا وَهِيَ راغمةٌ[21] ومن كان هَمُّهُ الدنيا فَرَّقَ الله أمره، وجعل فَقْرَهُ بين عينيه، ولم يأته من الدينا إلا ما كُتِبَ له)).

وأنت إذا فَسَّرْتَ هذه الكلمات بما وَصَفْنا لك ووَجَّهْتَهَا على ذلك التأويل، رأيت عجائبَ معانِيها لا تنقضي، وأدركتَ سرَّ قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((إني على علم من الله عَلَمَنِيهِ))، فاتساع الذات الإنسانية، ومادَّتها لحقائق الكون يجعل الإنسان كالكون نفسه، مجتمِعًا غيرَ مُفَرَّقٍ على هُموم الحياة، ويجعل الغِنَى معنًى لا مادَّة، ولو امتلك إنسانٌ منَ الناس كلَّ ما طلعت عليه الشمس، وكان له كَنْزٌ في المشرق، وكنز في المغرب لما بلغ شيئًا قليلاً من لَذَّةِ هذا المعنى في قلبه، وفي هذه الحالة تصبح الدنيا العريضةُ التي يَهْلِكُ الناس في تحصيلها، وليست إلا ضرورة

صغيرة قد تكون في ثوب، ولُقَيْمَاتٍ، ونحوها مما لا خطر له، وهذا هو إرغامها وهي مالكةُ الملوك، فإذا ضاق الإنسان عن روحه أصبحت النفس كالمنخل يوضع الدقيق الناعم فيه ليخرج منه فيُمْسِكُهُ كلَّه ولا يُمْسِكُ منه شيئًا، وُضِعَ بين عينيها معنى الفقر، فهي تعمل أبدًا لتمتلئ، ولا تمتلئ أبدًا، وإذا كان المنخل متَّخَذًا على الطريقة التي صُنع بها ففَقْرُهُ - ولا جَرَمَ - مُعَلَّقٌ عليه من ذات تركيبه "أَفَهِمْتَ"؟

ولما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - متساوقًا[22] مع الحقيقة، متَّصِلاً بها محدودًا بربِّهِ لا بنفسه كان لذلك خارجًا من حاضر ما نحن فيه، ممتدًا بمعناه الإنساني الكامل إلى المستقبل الذي وراء الحياة، فما نحصره نحن بطبيعتنا في بعض الأسماء لا يلتفت هو إليه بطبيعته، ومن ذلك أوصاف الغنى، والحِلْيَةِ، والنعيم، والمتاع، والجمال، والمَطْعَمِ، والمَشْرَبِ، وما داخَلَ الطبيعة من مثل معانيها، وما جرى هذا المَجرى فهذا كله يراه الناس من جهة الحاجة إليه والمطمع فيه؛ إذ كان ضعف إدراكهم، وضِيق وَعْيِهم، مما يُبْدِعُ لهم أكاذيبَ الخيال، فتجيء من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم، أما النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - فيرى ذلك من ناحية الغِنى عنه والسمُوِّ عليه إذ كان لا ينظر بطبيعة روحه العظيمة إلا أعلى النظرين، وأَطْهَرَهُما فآخِر إدراكنا للحقيقة والطبيعة أوَّلُ إدراكه هو الطبيعة، والحقيقة وما تَعْجِزُ عنه الإنسانية تبدأ منه النبوَّة.

وعلى هذا: فإن من أقوى البراهين على كماله - صلى الله عليه وسلم – ونُبُوَّتِهِ، واتساع روحه، ونفاذِ إدراكه لحقائق الكون، أنه لم يتبسط في تلك الفنون كما يصنع البُلغاء، ولم يأخذ مأخذهم فيها؛ إذ كانت كلها من أكاذيب القلب، والفِكر، والعين.

وفي قانون الحقيقة أن الأشياء هي كلُّ الأشياء، وهي كما هي، أما في قانون الكذب، فالأشياء كلها هي ما تختاره أنت منها، وكما تختاره.

بحَسْبِ الدنيا من جمالِ فنِّهِ - صلى الله عليه وسلم - ما يضيف إلى الحياة عَظَمَةَ الأشياء العظيمة، ويدفع الإنسانية في طريقها الواحد الذي هو - بين الأب والأم - طريقُ الأخ إلى أخيه يكون في الدنيا بين الرجلين كما هو في الدمِ بين القلبين رحمةً ومَوَدَّةً، وبِحَسْبِنَا من جمال هذا الفَنِّ ما يَهْدِي الإنسانَ إلى حقيقةِ نَفْسِه فيُقِرُّهُ في الحقيقيِّ من وجوده الإنسانيِّ، ويجعل الفضائل كلَّها تربيةً للقلب يَكْبُرُ بها، ثم يَكْبُرُ، ثم لا يزال يَكْبُرُ حتى يَتَّسِعَ لحقيقة هذه الكلمة الكبرى: ((اللهُ أكبرُ)) .

---

[1]تدبرته : تدارسته.

[2]انخلعوا: خرجوا .

[3]يفصم البرد : يقلع .

[4]يتفصد عرقا: يجري عرقه.

[5]برحاء الحمى : شدتها .

[6]يتحدر: ينهمر

[7]الجمان: اللؤلؤ

[8]ترض : تحطم .

[9]يغط: يغيب عن عالم المحسوسات.

[10]هاجس: فكر طارئ .

[11]تنسرح: تنفلت

[12]الملهم: الموهوب.

[13]يؤول : يفسر ويتحول .

[14]التنقيح: التصحيح.

[15]ضرب من الأردية المصرية.

[16]الرفث: هو ما بذؤ من الكلام.

[17]رقي: صعد.

[18]يستجفيه: يجده قاسيا جافيا.

[19]تحتسي: تشرب قليلا قليلا .

[20]زيغ الهوى: ميله.

[21]راغمة: ذليلة ، خاضعة.

[22]متساوقا: منسجما.